مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد:26 عدد: 63 السنة: 2022

رؤية سوسيولوجية لظاهرة زيارة أضرحة الأولياء الصالحين في المجتمعات المغاربية

A sociological view of the phenomenon of visiting the shrines of the Righteous Saints in Maghreb societies

خالد بوشارب بولوداني[1]
جامعة 8 ماي 1945– قالمة
boucharebkhaled@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2021/06/02 القبول 2021/08/11 النشر على الخط 2022/01/15
Received 02/06/2021 Accepted 11/08/2021 Published online 15/01/2022

ملخص:

تهدف الدراسة الراهنة إلى محاولة تشخيص الواقع الفعلي لظاهرة زيارة أضرحة الأولياء الصالحين كظاهرة سوسيوثقافية تميز مجتمعات المغرب العربي، من خلال محاولة كشف الأسباب الحقيقية التي دعمت استمرار هذا السلوك الاجتماعي، في ظل التغيرات الحاصلة في السياقات السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والثقافية لهذه المجتمعات، خاصة وأن هذه الظاهرة عرفت في الآونة الأخيرة انتقادات جمة دعت إلى ضرورة اندثارها.

وأمام هذا التضارب والإشكالية القائمة بين محاولات إعادة إنتاج هذه الظاهرة وبين الدعوات إلى ضرورة اندثارها، كشفت الدراسة الراهنة من خلال اعتمادها المنهج الوصفي أن استمرار ظاهرة زيارة أضرحة الأولياء الصالحين واتساعها تمس في عمومها المناطق الفقيرة من المجتمعات المغاربية بفعل العديد من العوامل المتداخلة والمتشعبة، خاصة وأنه هناك جهات ذات نفوذ لها مصالحها في استمرار قدسية الأولياء الصالحين في مخيال شعوب هذه المجتمعات لتنفيذ أجندتها والمحافظة على مكانتها السياسية ومصالحها الاقتصادية.

الكلمات المفتاحية: أولياء صالحون؛ مجتمعات مغاربية؛ طقوس؛ قرابين؛ تمثلات.

Abstract:

The present study aims to try to diagnose the real reality of the phenomenon of visiting the sanctuaries of the just saints as a socio-cultural phenomenon that characterizes societies in the Arab Maghreb, by trying to discover the real causes that supported the pursuit of this social behavior, in light of the changes taking place in the political, economic and even social and cultural contexts of these societies, especially since these phenomena have been widely criticized in recent times, which has called for their disappearance.

Faced with this inconsistency between the attempts to reproduce this phenomenon and the calls for its disappearance, the present study revealed, by its adoption of the descriptive method, that the continuation of the phenomenon of the visit of the tombs of the just saints and their expansion affect in general the poor districts of the Maghreb societies because of many interdependent and branched factors, all the more that there are sides It has an influence in its interests to maintain the sanctity of the just saints in the spirit of the people of these societies in order to implement their programs and preserve their political status and economic interests.

Keywords: Just Patriarchs; Maghreb societies; rituals; offerings; representations.

[1]– المؤلّف المراسل: خالد بوشارب بولوداني البريد الإلكتروني: **boucharebkhaled@yahoo.fr**

1. مقدمة:

على الرغم من التطورات العلمية الحاصلة اليوم في مختلف الحقول المعرفية، الاجتماعية منها أو التقنية، إلا أن المرجعية الدينية لازالت تشكل الفارق في تفسير بعض الظواهر والسلوكات، خاصة في المجتمعات المتخلفة، كون هذه الأخيرة لازالت تنتشر فيها الكثير من الأساطير في تفسير العديد من الظواهر؛ كالأوبئة والأمراض أو حتى الفقر والتفكك الأسري وغيرها، ويصفون علاجها في قضايا غيبية ترتبط عادة بأشخاص يتمتعون في اعتقادهم بخوارق تسمو على طبيعة البشر، نتيجة تقربهم إلى الله، وإخلاصهم في عبادته، وهم ما يعرفون في المجتمعات العربية، وخاصة المغاربية منها بالأولياء الصالحين.

إن تقديس هؤلاء الأشخاص الذين لديهم القدرة على جلب السعادة والشفاء، والطمأنينة للشخص الذي يتقرب بواسطتهم إلى الله في مخيال شعوب هذه المجتمعات، خاصة المناطق الفقيرة منها أدى إلى إعادة إنتاج ظاهرة زيارة أضرحة الأولياء الصالحين، وما يقام على شرفهم من ولائم وطقوس، كتعبير لا مادي عن ارتباطهم بكل ما هو ديني.

وتعد زيارة أضرحة الأولياء الصالحين في المجتمعات المغاربية من أبرز الطقوس والشعائر التي يرى فيها سكان هذه المجتمعات الطرق المثلى للتقرب من الله، فهي تعبير علني عن رغبة شعوب هذه المجتمعات في التمسك بدينها من جهة، وقصور فكرها السوسيوثقافي عن تفسير بعض الظواهر والسلوكات من جهة أخرى، حيث تلجأ هذه الشعوب إلى بعض الممارسات الدينية في ظاهرها- كون الدين حتمية يلجأ إليها الفرد عندما يعجز عقله المادي عن تلبية بعض حاجياته، فيلجأ إلى الجانب الروحاني ليحافظ أو يحاول إحداث التوازن بين النفس والجسد- لأن جوهرها الانتربولوجي يعتبرها متنفس يخرج به الناس من العالم المادي إلى العالم الروحاني، حيث تعبر عن أحد أشكال التواصل اللامادي بين الماضي والحاضر، من خلال استذكار فضائل وكرامات الأولياء الصالحون لتبييض الواقع الأسود الذي يعيشه الشخص الزائر للضريح، ويؤكد الانتربولوجي " E .Doute" "إدموند دوتي" ذلك حين يقول:" إن عدم وجود وسيط بين العبد وربه في الدين الإسلامي، فإن المسلم هنا يجد ضالته في زيارة الولي الصالح ليتقرب إلى ربه أكثر[1].

وإذا كانت استمرارية زيارة أضرحة الأولياء الصالحين لدى شعوب المجتمعات المغاربية تؤكد على مدى قدرة فكر هذه الشعوب على مجابهة التغير الاجتماعي والثقافي، فإنها تعكس من جهة أخرى قدرة الحركات الطرقية على التطور والتكيف، وصياغة الرباط الاجتماعي بشكل يسمح بالاستمرار والديمومة، وهذا ما جعل من الضريح يرتقي إلى مفهوم المؤسسة في تأثيرها على مختلف السياقات الاجتماعية والثقافية، وحتى السياسية المحيطة بها، من خلال امتلاكها لذلك الرأسمال الرمزي المتمثل في الصورة القدسية التي يتمتع بها الولي الصالح في المخيال الشعبي.

إن انتشار الدروشة والطقوس والممارسات التقليدية المدعمة للاعتقاد في خوارق وكرامات الأولياء الصالحين، وترسيخ مكانتهم السامية في المعتقد الشعبي، ساهم في استمرار وانتشار ظاهرة الطُلْبَة والأولياء الصالحين، غير أنه وفي الآونة الأخيرة ظهرت تيارات فكرية ترى بإلزامية اندثار هذه الظاهرة من المجتمع وعدم الاهتمام بها، كونها تعبر عن تخلف للبنية الاجتماعية وتناقضها مع متطلبات التحضر والتقدم[2]، إلا أن واقعنا السوسيولوجي والثقافي يحتم علينا التسليم بوجود هذه الظاهرة، وضرورة معالجتها كظاهرة اجتماعية وثقافية وفهمها في سياق حركية الواقع الاجتماعي.

---

[1] . Filali, K., « Sainteté maraboutique et mysticisme (contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane », in Insaniyat, n° 3, 1997.p. 117.

[2] . قيرة اسماعيل، وآخرون، النسق القيمي والتصورات الاجتماعية، منشورات مخبر العلوم الاجتماعية وقضايا المجتمع، قسنطينة، د.ط، د.ت، ص: 83.

وعليه، وأمام هذه القراءات المتناقضة في واقع ظاهرة زيارة أضرحة الأولياء الصالحين في المجتمعات المغاربية- بين من يقدسها ويعتبرها ركن شعائري للتقرب إلى الله، ومن يعتبرها تخلف ويسعى في زوالها، من خلال تهميشها وعدم الخوض في حيثياتها وتفاصيلها- نحاول من خلال هذه الورقة البحثية تناول موضوع زيارة أضرحة الأولياء الصالحين، كظاهرة سوسيوثقافية تعبر عن خصوصية مجتمعات المغرب العربي في ظل ثقافة الكوني اليوم، وما يميزها من طقوس وممارسات، رسمت في مخيال هذه الشعوب صورة قدسية عن الولي، سمحت باستمرار الضريح، بل وتطوره حتى تجاوز استخدامه التقليدي الذي ارتبط بخصوصيته الدينية والتعليمية، ليصبح عاملا هاما في رسم معالم الحياة السياسية، على الرغم من التغيرات الحاصلة في الأبنية الاجتماعية والأنساق الثقافية لهذه المجتمعات.

فما هي الأسباب الحقيقية وراء عدم اندثار هذه الظاهرة المعقدة في أبعادها، بل وتطورها في بعض المناطق؟

قبل الغوص في أي حقل من حقول السوسيولوجيا، أو عند محاولة دراسة أي ظاهرة اجتماعية قصد تشخيص واقعها الفعلي، يجب على الباحث تحديد دلالاتها ومعانيها في الواقع المراد دراستها فيه تحديدا دقيقا، حتى يتسنى لأي قارئ فهم حيثيات وتفاصيل الموضوع وفق سياقها السوسيولوجي والأنتروبولوجي مثلما يريده الباحث، وتتجلى هذه المعاني في مفاهيم الدراسة، لذلك كان لزاما تحديد معاني بعض المفاهيم التي تضمنتها الدراسة؛ والتي من بينها:

1. الولي:

والذي يشتق من الوَلاية، وتعني في اللغة العربية الدنو والاقتراب وتعني أيضا ملك أمره، وقام به، وولى فلان أي نصره وأحبه، وأولى على اليتيم أي أوصى به، وأولى فلان الأمر أي جعله واليا عليه، وأولى فلانا معروفا أي صنعه إليه.

والولي والمولى واحد في كلام العرب، قال ابن الأعرابي ابن العم مولى وابن الأخت مولى والجار والشريك والحليف والولي والصديق والنصير وقال الولي هو التابع المحب[1].

أما الولاية في الصوفية فلها معنيان؛ معنى مفعول وهو من يتولى الله سبحانه وتعالى أمره، لقوله تعالى:"وهو يتولى الصالحين"، أي يتولى الله رعايته، والمعنى الثاني من الفاعل مع المبالغة فيه، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، أي أن عبادته لله تكون متوالية، أي مستمرة خالية من العصيان.

أما من الناحية الاصطلاحية، فالولي: هو ذلك الشخص العارف بالله وبصفاته، المواظب على الطاعات والمتجنب للمعاصي، المعرِض عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة، المحافظ على السنن والآداب الشرعية، وسمي وليا لأنه يتولى عبادة الله على الدوام، وأن الله تولاه بلطفه وعنايته، أي أنه ذلك الشخص التقي الصالح الذي يحظى في حياته وحتى بعد مماته بتقدير واحترام الناس[2].

2. الضريح:

الضريح من الناحية اللغوية هو ذلك الشق الذي يتوسط القبر، وقيل أيضا أنه القبر كله.

أما من الناحية الاصطلاحية فيطلق الضريح على البناء المشيد على القبر[3].

---

[1] . الغرياني، صادق عبد الرحمن ، الغلو في الدين، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2001، ص- ص: 87-88.

[2] . بوخضرة، معمر، الولي في المخيال الشعبي- الطريقة القادرية في الغرب الجزائري، دكتوراه في الأنثروبولوجيا، جامعة تلمسان، الجزائر، 2012، ص:55.

[3] . نوار، سامي محمد، الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2002، ص: 24.

وعادة ما تعلو الضريح قبة تسمى قبة سيدي فلان، والتي تمثل بدورها رمزا عقائديا ذو قداسة، وكأنها عبارة عن قناة تواصل بين الأرض والسماء.[1]

3. الكرامة:

وهي ذلك الفعل الخارق للعادة، وغير المألوف في الحياة المعهودة، يظهره الولي الصالح، وهي ما يقابلها عند الأنبياء بالمعجزة، والاعتقاد السائد لدى عامة الناس أن هذه الكرامة لا تذهب بذهاب ذلك الشخص عن الحياة، وإنما تلزم قبره بعد الممات، وتكون سبب في التواصل بينه وبين الناس[2]، والفرق بين الكرامة عند الأولياء والمعجزة عند الأنبياء أنه على النبيين ضرورة إظهار معجزاتهم، بينما على الأولياء ضرورة إخفاء كرامتهم.

4. المريد:

وهي مشتقة لغويا من الأوراد، ومفردها ورد، وهو ما يقرؤه المتعلم في الزاوية بين الليلة واليوم مما يكلفه به شيخ الزاوية، وهي عبارة عن أذكار تحفظ عن ظهر قلب، وبمجرد حفظ المتعلم لها يصبح من مريدي تلك الطريقة الصوفية.

والمريد هو رتبة في الطرق الصوفية يتقلدها المتعلم على يد شيخه إذا حفظ ما لزمه به، حتى يسير على نهج وطريقة معلمه[3].

والمريد رغم إقراره بعدم رؤية الشيخ (الولي) لكنه يؤمن ويسلم بكل ما يروى عنه من كرامات، من خلال ما يعرف بالورد، أي أنه يدخل تحت ورد الشيخ، وهي عبارة عن أذكار تحفظ عن ظهر قلب وبمجرد حفظك لهذه الأذكار تصبح من مريدي تلك الطريقة.

5. التمثلات:

كلمة تمثلات مشتقة من تمثل، وتمثل الشيء هو تصور مثاله، ومنه التمثل، وهو حصول صورة الشيء في الذهن أو إدراك المضمون المشخص لكل فعل ذهني، أوكما يقال في اللغة الفرنسية (image) أي صورة منقولة طبق الأصل، ويعرفها مصطلح "la rousse " بأنها: "أصغر وحدة مخصصة لتعديل الوصفات للمتفاعلين، وهي عادة ما ترادف مصطلحات أخرى كمصطلح الرمز[4]"

والتمثل هو رسم صورة الشيء في الذهن أو إدراك تصور ماهية الشيء ونوعه[5].

6. الحضرة:

وتشير إلى ذلك التجمع من الفقراء بغية ممارسة بعض العبادات؛ كالذكر مثلا، ويتحول الأمر أثناءها إلى القيام برقصات وفق حركات موزونة وموقوتة، وبأصوات متناغمة، ويتطور الحال غالبا إلى مرحلة الدخول في غيبوبة تصاحبها موجة من البكاء والصراخ[6]، وتسمى في مناطق أخرى المزارة؛ وهي تجمعات غالبا ما تكون سنوية أو عند مناسبات دينية كالمولد النبوي الشريف، تقام على شرف صاحب الضريح، حيث يتم فيها دبح القرابة والنذور ابتغاء استجابة الدعاء أو إبعاد الشرور والشفاء من الأمراض.

---

[1] . عزوق، عبد الكريم، القباب والمآذن في العمارة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1996، ص: 54.

[2] . دحماني، محمد ، حكايات كرامات الأولياء في منطقة الشلف، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2006، ص: 16.

[3] . طالب، عبد الرحمن، الشيخ سيدي أحمد التيجاني ومنهجياته في التفسير والفتوى والتربية، الجاحظية، وهران، د ط، 2004، ص:58.

[4] . بوطوطن، محمد الصالح: تمثلات الأساتذة والأولياء والتلاميذ حول أسباب الفشل المدرسي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2008، ص: 22.

[5] . بن نعمان، أحمد، سمات الشخصية الجزائرية من منظور الانتربولوجيا النفسية، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، د ط، 1988، ص: 313.

[6] . سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، د.ط، 2007، ج4، ص: 489.

وتبقى هذه المفاهيم والمصطلحات تختلف نسبيا من منطقة إلى أخرى، وفق ما هو موروث لغويا عن الأجيال السابقة، ووفق الخصوصية الثقافية لكل مجتمع، إلا أنها تتفق من حيث دلالاتها السوسيولوجية بتقديس مكانة الولي والتسليم بخروقاته، وبناء على هذه الاختلافات في الموروث اللغوي والسياقات الثقافية لهذه المجتمعات، فقد تعددت واختلفت أسباب انتشار الأضرحة في المجتمعات المغاربية، فإذا ساهمت الزاوية في عدم اندثار اللغة العربية كما كان يخطط له الاستعمار الغاشم[1]، من خلال تحفيظ القرآن لمريديها، وتعليمهم العلوم الشرعية والتاريخية والعلوم اللغوية كالصرف والنحو وغيرها، فقد ساعد هذا الدور الذي لعبته الزاوية في الحفاظ على مكانتها بين السكان كرد للجميل، أما اليوم فإن الزاوية تلعب دورا اجتماعيا آخر من خلال إحياء ظاهرة التضامن الاجتماعي، حيث تعمل على تقديم الأكل والإيواء لكل من ضاق به ظرفه، ومن جهة أخرى فإن المستوى العلمي والثقافي المحدود السائد بين زوار هذه الأضرحة ساهم بشكل مباشر في انتشارها، حيث يسود في معتقد الناس أن كل مدينة أو قرية حتى تكون آمنة من عند ربها، يجب أن يحرصها شخص على صلة وثيقة بربه، وهذا الشخص في المخيال الشعبي هو الولي الصالح الذي يحميها من العين والمجاعات والأمراض، هذا وتبقى فكرة قدرة الأولياء الصالحين على حل المشكلات، وإشباع الحاجات النفسية والروحية لطالبيها، من أسباب انتشار الأضرحة في المجتمعات المغاربية، فالولي الصالح في اعتقادهم له كرامات كمعجزات الأنبياء، فهو يجلب الشفاء للمريض أو يساعد المحتاج على قضاء حاجته، إذا ما توسط لهذا العبد مع ربه، فيبعد عنه الشرور وكل ما يعكر صفو حياته، أي أن الاعتقاد بالمكانة المثلى التي يحظى بها الأولياء الصالحون عند خالقهم في المخيال الشعبي جعل الناس يعترفون بهم كوسطاء بينهم وبين ربهم، فينقلون إلى الله دعائهم وتضرعاتهم وقرابينهم، فيتقبل الله منهم، فتقض حاجة ذلك العبد، وتجدر الإشارة أيضا إلى أن انتشار الدروشة والممارسات التقليدية المدعمة للاعتقاد في وجود كائنات غير مرئية، لها القدرة على جلب الخير أو الشر للإنسان؛ كالحسد والعين أو ما يعرف في هذه المجتمعات بـ"التابعة"*، ساهمت في استمرار الأضرحة في المجتمعات المغاربية.

وبالنظر إلى هذا التعدد والتباين في أسباب انتشار الأضرحة في المجتمعات المغاربية، خاصة في المناطق الريفية التي تتسم عادة بمستويات ثقافية وتعليمية محدودة، فقد اختلفت أهداف الزيارة عند كل ضريح وعند كل زائر، فهناك أضرحة يقصدها الزائر لقضاء حاجات معينة دون سواها؛ كضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وضريح سيدي والي داده، وضريح سيدي محمد بوقبرين**، وسيدي منصور وغيرهم، والتي يقصدها الزائر لتحصيل **الصحة** والسلامة الجسدية والعقلية، وقهر الخمول والكسل، فعادة ما يطلب زائر هذه الأضرحة من الولي الوساطة للشفاء من الأمراض، في حين هناك أضرحة تكون شمولية في خدماتها، فيسعى زائرها إلى البحث عن الراحة والهدوء الداخلي، واتقاء الشرور، وإبعاد العين والحسد أو التابعة، ونيل الخير والبركة، وغالبا ما ترتبط هذه الأهداف بالراحة **النفسية**، أو **الاجتماعية** إذا ما شملت هذه الزيارة جماعة من الناس وليس شخص واحد، كطلب العون والقوة والحماية والآمان، وتأمين حاجة الغرباء وعابري السبيل والفقراء، فتترسخ مظاهر التكافل والتعاون الاجتماعي وتتأكد معالم الحياة التقليدية للعشيرة من خلال ربط الماضي بالحاضر، وتقوية عوامل التجانس بين مقومات بنائها الاجتماعي[2]، أما الأهداف **الدينية** من زيارة الضريح فتتمثل أساسا في تحقيق الاستقرار الروحي والسعادة الدنيوية والأخروية، والتقرب إلى الله عن طريق وساطة الولي.

---

[1] . تركي، رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1981، ص: 349.

* التابعة: المقصود بها هو أن هذه الأشياء الخفية تتبع الناس المحسودون في أعمالهم وأرزاقهم وحتى في ذريتهم، وأن التخلص منها يكون عن طريق التقرب من الولي الصالح الذي يتوسط لطالب زوال هذه التابعة مع الله حتى يتخلص منها.

وإذا تعددت وتباينت هذه الأهداف من شخص لآخر أو من جماعة لأخرى، وتخصصت بعض الأضرحة في قضاء حوائج دون غيرها، فإن الطقوس الممارسة عند الأضرحة قصد تحقيق قبول الولي ورضاه، للوساطة في قضاء حوائج الزائرين تكاد تكون مشتركة، حيث يمكن حصرها فيما يلي:

1. **تقديم القرابين:** خاصة عند إعطاء وعد بالنذر، أو في المواسم الخاصة بالزيارات السنوية، حيث يؤتى بالأضحية سواء واحدة أو عدة أضاحي من الغنم أو الماعز أو البقر ويتم ذبحها، ثم تطهى ويوزع الطعام على الحاضرين والفقراء، من أهل المنطقة وعابري السبيل.
2. **تقديم الهبات:** ويكون ذلك عبارة عن لباس أو حلي أو نقود، حيث يتكفل وكيل الزاوية (القائم عليها) عادة باستلامها وإعادة استغلالها في صيانة الضريح أو توزيعها على الفقراء من أهل تلك المنطقة القريبة من مكان الضريح.
3. **ترك الزائر لبعض من أغراضه في الضريح:** وبعد مرور عدة أيام يرجع إليها ليأخذها بعدما تكون قد امتلأت بالبركة[1].
4. **الطواف بالضريح وإشعال الشموع:** وذلك بغية استلهام النور من الولي الصالح، فيتشبع الزائر ببركة ذلك الولي.
5. **وضع الحناء على أسوار الضريح،** وما جاوره تبركا بالولي الصالح المدفون هناك، كون الحناء في المجتمعات المغاربية عادة ما توضع للشخص المحتفل به سواء عريسا أو عروسا.
6. **إشعال البخور لطرد الأرواح الشريرة،** لاعتقاد الناس في هذه المناطق أن رائحة البخور تذهب الابتلاءات وتجلب الخيرات.
7. **تعليق بعض القطع من القماش على الضريح،** وذلك كقرابين رمزية لصاحب الضريح حتى تتشبع بالبركة.
8. **أخذ بعض الأوراق من الأشجار الموجودة بالضريح أو بالقرب منه،** وذلك للتبرك بهابعد ما تكون قد امتلأت ببركة ذلك الولي الصالح، وعادة ما تستعمل في البخور في المنازل لجلب الشفاء وإبعاد الأرواح الشريرة.
9. **تقبيل القبر أو الشباك أو التمسح به،** حتى تغمر ذلك الشخص المتمسح بركات الولي الصالح.
10. **الجلوس والصلاة عند القبر:** كون ذلك المكان طاهرا، فلا يكون هناك حاجزا في بين العبد وربه.
11. **الدعاء عند ضريح الولي الصالح:** ليقوم الأخير بتوصيله إلى الله، كون الولي الصالح أقرب إلى الله من عامة الناس، فيتوسط بين العبد وربه لينقل الدعاء.

إن هذا التعدد والتنوع في الطقوس التي يمارسها زوار الأضرحة، دليل على المكانة المرموقة التي يحظى بها الولي الصالح في المخيال الشعبي لهذه المجتمعات، حيث يسعى كل شخص أو جماعة إلى تقديم الأفضل حتى ينال بركة الولي الصالح وتقضى حاجاته، وقد تعدت مظاهر التبرك بالأولياء الصالحين الأمكنة المخصصة لذلك (الأضرحة) لتصبح من معالم الحياة اليومية للمجتمعات المغاربية، كاستحضار أسماء الأولياء الصالحين والتذكير بخروقاتهم في الأحاديث والتجمعات في مختلف المناسبات، بل والقسم بهم (حق سيدي فلان) عند محاولة تأكيد شيء معين، والدعاء على الخصوم والأعداء بأسماء الأولياء الصالحين أو التوسط بهم (بجاه سيدي فلان تخرج فيك) عند دعاء المظلوم على الظالم، أو أثناء التوسل إلى أشخاص آخرين لقضاء بعض الحاجات، حيث يتم التوسط بأسماء الأولياء الصالحين (بجاه سيدي فلان

**بعدما نقل رفاة الولي الصالح سيدي بن عبد الرحمان أمحمد من ضريحه بمنطقة القبائل إلى الجزائر العاصمة (الحامة)، بعد تزايد أعداد زواره، والتخوف من إمكانية حدوث أية انزلاقات غير محمودة، ولذلك سمي لاحقًا بـ" بو قبرين."

[2] . زيدان، عبد الباقي، علم الاجتماع الديني، القاهرة، ، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، 1981، ص- ص: 322-323.

[1] . بوحجرة، عثمان، الطب والمجتمع في العهد العثماني (1519- 1830م) – مقاربة اجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث، جامعة وهران01، الجزائر، 2015، ص- ص93-98.

أقضي لي حاجتي أو قدم لي مساعدة)، ويتم ذلك مع الله أيضا عند طلب العبد من ربه حاجة معينة، فإنه يستعين بالأولياء من خلال الدعاء بأسمائهم (يارب ببركة سيدي فلان) أقضي حاجتي .. ويذكرها(يذكر حاجته)، وهذا ظنا منهم أن الولي في قبره هو في عالم البرزخ الذي يكون بين الموت ويوم الحساب، وبالتالي فإن الولي هنا يمكنه سماع دعاء من يدعو ويقوم بتوصيله إلى الله عز وجل، كما أن استذكار فضائل وخروقات الأولياء الصالحين لا تكاد تخلو من فنون الشعر الشعبي والمدائح من خلال التعريج والتذكير بكرامتهم[1].

إن هذه المظاهر والسلوكات التي ترسم تفاصيل الحياة السوسيوثقافية اليومية لسكان هذه المجتمعات، تؤكد على فرضية استمرار هذه الطقوس، بل وتوسعها في غياب الرادع الديني الحقيقي، وانكماش الدراسات العلمية الأكاديمية التي تغوص في أعماق وحيثيات هذه الظواهر وتفصل تضاريسها، خاصة وأننا نجد في المقابل إعادة إحياء الوعدات؛ أي الاحتفالات التي تقام على شرف هؤلاء الأولياء، والتي أصبحت تستقطب مختلف الفئات الاجتماعية، وحتى المثقفة منها، خاصة وأن بركة الأولياء الصالحين في مخيال هذه الشعوب توصل الخير حتى إلى أتباعهم ومن يؤمن بهم، وهي هبة يمنحها الله لبعض من عباده، حيث يتولون هم توزيع الخيرات على بقية الناس، والبركة في المعتقد الشعبي ثلاثة أنواع:

1. **البركة الفطرية:** وهي تلك الهبة التي تأتي من الله ويمنحها لبعض من عباده، دون أن يتدخلوا هم بأي شكل من الأشكال في هذه المنحة أو الهبة، فهم مفطورون على ذلك.
2. **البركة الموروثة:** وهنا يدخل مفهوم آخر، وهو سلسلة البركة أو ما يعرف بشجرة البركة، فالشرفاء لهم بركة يرثونها أبا عن جد لأنهم ينحدرون من سلالة شريفة سلالة أهل البيت أي سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك نجد معظم العائلات في المجتمعات المغاربية تدعي نسبها إلى الأشراف افتخارا بسلالة أهل البيت، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى ارتباط شعوب هذه المجتمعات بالدين، وتمسكهم به، إلا أن نقص الوازع الديني الحقيقي وعدم قيام المساجد كنسق اجتماعي ديني بدورها الحقيقي في التوعية الدينية والتربية الاجتماعية الفاضلة والحقيقية، ترك فراغا رهيبا ملأته الأضرحة والزوايا بتعاليمها وثقافتها.
3. **البركة المكتسبة:** وهي التي يمكن اكتسابها من خلال زيارة مقام أو ضريح الولي الصالح، فهذا الولي الصالح ينشر بركاته على كل من يقترب من ضريحه أو يلامسه، أو حتى في بعض الأحيان لا يتطلب اكتساب البركة الحضور الشخصي للشخص الطالب لقضاء الحاجة، وإنما بركة الولي تكون أوسع من ذلك، حيث يؤتى بشيء من قماش شخص به علة أو مرض، ويطلب له الشفاء أو البركة من سيدي فلان دون حضوره الشخصي[2]، وهذه هي البركة التي يسعون زوار الأضرحة إلى الحصول عليها، وفق ما هو سائد في ثقافتهم، وما ترسخ في تمثلاتهم عن خروقات الولي الصالح، حيث يشترك أغلب زوار الأضرحة في العديد من التمثلات تترجم قداسة الولي في مخيالهم، ومن بين هذه التمثلات:

1. سرد حكاية أو أسطورة معينة دفعتهم إلى بناء هذا الضريح في ذلك المكان، كأن يرى أحدهم شخص يأتيه في المنام ويطلب منه إقامة ضريح الشيخ الفلاني في مكان معين، أو أنهم يتوجهون طواعية إلى مكان ما من أجل بناء ضريح الولي، إلا أنه في صباح اليوم الموالي تنتقل معدات البناء إلى مكان آخر فيكونون مجبرون على بنائه في المكان الذي وجدت فيه تلك المعدات.
2. نقل حاجات الزائر إلى الله: ومن أجل بلوغ ذلك يتم تقديم هدايا وقرابين إلى الولي الصالح حتى يرضى عنهم، وقبل عملية الذبح تسبقها العديد من الشعائر والطقوس، حيث عادة ما يبيتون المريدون في قضاء ليلة سابقة لتقديم القرابين في التسبيح والذكر وقراءة القرآن،

[1] . سعد الله، أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص: 206.

[2] . قيرة، اسماعيل وآخرون، النسق القيمي والتصورات الاجتماعية، مرجع سابق، ص- ص: 89-91.

وفي اليوم الموالي تحضر النساء أطباق الكسكسي، ويقوم الرجال بذبح القرابين، ويتم الأكل جماعيا وأحيانا تتخللها بعض الطقوس من الرقص والغناء، وما يبقى من الأكل يوزع على الآهالي.

3. تجنب الإصابة باللعنة: ومن أجل ذلك يجب على كل سكان القرية أو الدشرة حضور الوعدة أو الزردة، وحتى النساء المتزوجات خارج تلك القرية يجب أن يحضرن ويشاركن في أثمان القرابين، وإلا سوف تحل لعنة الشيخ عليهن وعلى أهلهن.

4. استلهام البركة للمقبلين على الزواج: فقبل القيام بمراسيم الزواج، عادة ما تأتي العروس وتطلب من الولي البركة والتوفيق في حياتها الجديدة، وبعد مرور نحو أسبوع على زواجها تقوم الحماة بأخذ زوجة الابن إلى ضريح الولي مع بعض الطعام ويوزع على الحاضرين هناك.

5. النذور: وهي قرابين يقدمها الزائر نتيجة وعود يقدمها للولي، فإذا تحقق مراده يقدم هذه القرابين.

ومن هنا (من خلال الممارسات والطقوس، وما يصاحبها من تمثلات ترسخت في أذهان شعوب المجتمعات المغاربية)، يتضح جليا قدسية الأولياء الصالحين في المخيال الشعبي للمجتمعات المغاربية كفكرة أساسية ترتبط بأهمية وجود هؤلاء الأولياء في حياة الناس لتقريبهم من خالقهم، وهذا ما يترجم ويفسر فكرة استمرارية الأولياء الصالحون وقداستهم لدى هؤلاء الشعوب، هذا وتعمل الزوايا من جهة أخرى على صناعة الأولياء الأحفاد لاستمرار ذلك التواصل وتكريس الواقع المعاش المبني على تقديس كل ما هو غير مرئي، من خلال نقل بعض الأساطير عن خروقات هؤلاء الأولياء إلى مختلف الأجيال من القائمين على تلك الزوايا، حتى يبقون محافظين على تلك الطقوس المسلمة بقدسية أسلافهم، وعادة ما يرتبط الانتماء لإحدى الطرق الصوفية بالوراثة، فيكون إما الأب أو الأم أو الأجداد من يتبع هذه الطرق، أو حتى الجماعة الصغيرة التي ينتمي إليها الفرد في مكان إقامته، فيتشبع الشخص من محيطه الاجتماعي القريب بأفكار غريبة حول كرامات وخروقات الولي الصالح، فتترسخ في ذهنه تلك الصورة المثالية عن الولي.

كما أن تشبع الفكر الصوفي بتلك التمثلات، والأفكار التي تتخذ من الدروشة والتقديس إحدى مسلماتها في تفسيرها للأمراض أو أشياء أخرى بما يخدم اتجاهات هذا الفكر، من خلال ما يعرف عند الصوفية بالتسليم أي استخدام عبارة "مسلمين مكتفين"، فيسلمون بكل الأمور المتعلقة بشيوخ الزوايا، ولا ينكرون عليهم ما ينسب إليهم من كرامات، ولو كانت عبارة عن معجزات، فإنهم يعتبرونها حقيقة يجب التسليم بها، وإلا فإن قداسة وكرامة الشيخ سوف تحل على كل من لا يسلم بها تسليما كاملا باللعنة هو وأهله، ومن بين الكرامات التي يمكن روايتها إطلاع الناس ببعض الغيب، أو إخبار أحدهم بما يجول في خاطره، أو قدرته على شفاء المرضى، وهو ما يبقي ويحافظ على قدسية الولي الصالح، واستمرار الضريح.

إن الدلالات الرمزية التي تحملها الطقوس والشعائر التي تقام على شرف أضرحة الأولياء الصالحون، أو ما تعرف بالحضرة أو الزردة في بعض المناطق، خاصة في بعدها الاجتماعي، كإشراك الفقراء والمساكين في هذه الاحتفاليات وحصولهم على نصيبهم من القرابين، فضلا عن التعاون الذي يكون بين جميع الحاضرين في هذه الحضرة، ساهمت في التمسك أكثر بهذه الحضرات والزردات والتبرك بالأولياء الصالحين، والمحافظة على قدسيتهم.

وإذا تمعنا أكثر في واقعنا السوسيوثقافي (المجتمعات المغاربية) فإننا نجد انتشار واستمرار قداسة الأضرحة، غالبا ما يكون في المناطق الريفية والأحياء الشعبية أين ينتشر الجهل والأمية، فضلا عن انتشار ثقافة الإيمان بالروحانيات، وهذا ما يساعد على تغذية الفكر الصوفي، ويعمل على نشره واستمراره، فيكون تصديق مثل هذه الخوارق بالأمر السهل والبسيط، على اعتبار أن الثقافة الاجتماعية التي تسود الأحياء الفقيرة والريفية غالبا ما تقوم على الأساطير؛ كالإيمان بأن الولي الصالح في قبره يكون في حياة البرزخ، أين يمكنه سماع دعاء العبد فينقله إلى

ربه، وأكثر من ذلك حين يسمو الولي في فكر بعضهم إلى مصف الأنبياء بما يتميز به من خروقات، فتصبح زيارة قبر الولي الصالح بمثابة زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، لتجديد إيمان الإنسان العابد وزيادة تقربه من الله للتخلص من ذنوبه وتحقيق حاجاته.

وهذا ما يفسر إعادة إنتاج هبة الضريح وقدسية الولي الصالح في فكر شعوب المجتمعات المغاربية وإعادة انتشاره في العقود الأخيرة، على الرغم من التغيرات والتطورات الحاصلة في السياقات الثقافية والاجتماعية لهذه المجتمعات، وما عرفته من صحوة دينية، أدت إلى ظهور موجة من الأحزاب ذات التيار الإسلاموي دعت إلى ضرورة قيام أنظمة إسلامية في المجتمعات المغاربية، ووضع نهاية للأنظمة الحاكمة، فكانت هبة شعبية كبيرة وراء هذه الأحزاب كدليل على مدى ارتباط شعوب هذه المجتمعات بكل ما هو ديني، فلجأت الأنظمة الحاكمة في هذه المجتمعات إلى استغلال مكانة الزاوية لارتباط وجودها بالوازع الديني عند شعوبها، وإعادة بعثها بما يخدم مصالحها حتى تضمن استمرارها في السلطة، فدعمت بشكل مباشر شيوخ الزوايا من خلال بعض المزايا، وكذلك إدماجهم في الحياة السياسية، حيث يقوم المترشحون خاصة من الأحزاب الحاكمة بإبداء وإعلان الولاء والطاعة لهؤلاء الشيوخ، من خلال زيارتهم لهم في زواياهم وطلب بركاتهم والدعاء لهم للنجاح في مسارهم السياسي، فاستمر الضريح وانتشر وتعددت وظائفه.

2. خاتمة:

يبدو جليا من خلال تشخيصنا لواقع الفكر الصوفي في المجتمعات المغاربية، عن طريق تسليط الضوء على ظاهرة زيارة الأولياء الصالحين وما يقام عليها من طقوس "وعدات" أو "حضرات" أو كما تسمى أيضا في بعض المناطق بالزردات، أنه مليء بالتمثلات والأفكار التي تثبت التناقضات التي يحملها هذا الفكر، حيث نجد تباين صريح بين أفكار الصوفية وسلوكاتهم، فهم من جهة يقرون بوحدانية الله عز وجل في القدرة على الشفاء وقضاء حاجات الناس، ومن جهة أخرى يمارسون العديد من الطقوس عند الضريح ويتنافسون في ذلك، قصد تحقيق رضا الولي لتقضى حاجاتهم، والتي تتنافى مع معتقد الوحدانية في قضاء الحاجات، هذا فضلا عن الوساطة بين العبد وربه، فالدين الإسلامي ينفي هذه الوساطة، في حين أن الفكر الصوفي يتخذ منها جوهرا في تمثلاته من خلال التسليم بقدرة الولي الصالح على التوسط بين العبد وربه في قضاء الحاجات.

وعليه، يمكن القول أن هذا الفكر الروحاني بكل طقوسه وممارساته، وعلى الرغم من ترسخه في المخيال الشعبي لهذه المجتمعات مواجها كل التغيرات الحاصلة فيها، إلا أنه يبقى فكر أسطوري في أغلب مقوماته، متناقض في مبادئه وأسسه، بدائي في طقوسه وممارساته، مستهدف للفئات الهشة والبسيطة قصد المحافظة على قدسيته واستمراره لخدمة جهات معينة تحاول أن تحافظ على مراكز القوة في يدها بأسلوب روحاني بعيد عن الإكراه المادي.

وهذا ما يضمن استمرار وإعادة إنتاج دور الزوايا في المجتمعات المغاربية الراهنة، فعلى الرغم من أن ظاهرة زيارة أضرحة الأولياء الصالحين تبقى في معتقد سكان المجتمعات المغاربية مجرد سلوك للتقرب من الله برعاية بركة الولي الصالح، إلا أنها أضحت تسمو في دورها الاجتماعي والثقافي وحتى السياسي إلى مؤسسات لها ثقافتها ونظامها وأهدافها، حيث أصبحت تستخدمها السلطة كآلية لتأطير الشعوب وضمان عدم خروجها على طاعة ولي الأمر، خاصة إذا بارك وأعلن ذلك شيخ الزاوية، فيصبح الخروج عن طاعة الحاكم هنا خروج على شيخ الزاوية، والخروج على شيخ الزاوية تعني عدم الاعتراف بقدسية ضريح ذلك الولي، فتحل اللعنة على كل من يخرج عن طاعة الولي الصالح وفق ما هو مسلم به في المخيال الشعبي لهذه المجتمعات.

هذا الدعم المتبادل بين الزاوية أو الضريح والسلطة ساهم بشكل مباشر في ديمومة الضريح، واستمرار قدسية الولي الصالح في مخيال هذه الشعوب المهمشة اجتماعيا، والفقيرة ماديا، كونها أصبحت من اهتمامات السلطة في تمرير ممارساتها وسياساتها.

3.قائمة المراجع:

1.3. الكتب:

(1). الغرياني، صادق عبد الرحمن ، الغلو في الدين، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2001.

(2). بوخضرة، معمر، الولي في المخيال الشعبي- الطريقة القادرية في الغرب الجزائري، دكتوراه في الأنثروبولوجيا، جامعة تلمسان، الجزائر.

(3). بن نعمان، أحمد، سمات الشخصية الجزائرية من منظور الانتربولوجيا النفسية، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، د ط، 1988.

(4). زيدان، عبد الباقي، علم الاجتماع الديني، القاهرة، ، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، 1981.

(5). طالب، عبد الرحمن، الشيخ سيدي أحمد التيجاني ومنهجياته في التفسير والفتوى والتربية، الجاحظية، وهران، د ط، 2004.

(6). نوار، سامي محمد، الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2002.

(7). سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، دار البصائر، الجزائر، د.ط، 2007.

(8). عزوق، عبد الكريم، القباب والمآذن في العمارة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1996.

(8). قيرة اسماعيل، وآخرون، النسق القيمي والتصورات الاجتماعية، منشورات مخبر العلوم الاجتماعية وقضايا المجتمع، قسنطينة، د.ط، د.ت.

(9). تركي، رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1981.

2.3. المجلات:

(1). Filali, K., « Sainteté maraboutique et mysticisme (contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane », in Insaniyat, n° 3, 1997.

3.3. الرسائل الجامعية:

(1). بوحجرة، عثمان، الطب والمجتمع في العهد العثماني (1519- 1830م) - مقاربة اجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث، جامعة وهران01، الجزائر، 2015.

(2). بوطوطن، محمد الصالح: تمثلات الأساتذة والأولياء والتلاميذ حول أسباب الفشل المدرسي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2008.

(3). دحماني، محمد ، حكايات كرامات الأولياء في منطقة الشلف، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2006.